

تأليف

الأستاذ/ محمد بن سعد آل زعير

مصدر هذه المادة :





بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه.

أخي القارئ الكريم:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد:

فهذا الجهد المتواضع يُعَدُّ المجموعة الثانية، التي تلي كتابي الأول (هَمَسَاتٌ نَدِيَّةٌ) يحمل بين طياته خواطر شجية ولفتات إيمانية وقصصًا تربوية أزجيها إليك علها تلامس شغاف القلوب؛ فتوقظها فترتشف من الدلاء المحمدية.

وأملي أن يتسع صدرك لها وأن تتحد الجهود لترفع الأدب الإسلامي إلى الفَرْقَد ومن هنا يرسل إشعاعه ونبراسه وضياءه على الأمة ويبثها خبره الصادق وكلمته المؤثرة ومثله العليا ليطمس معالم الظلام والتيه.

بقلم الأستاذ/ محمد بن سعد آل زعير

مدرس اللغة العربية في المعهد العلمي في محافظة الأفلاج

ليلى – الأفلاج

ص.ب: (٢٨٥) الرمز البريدي (١١٩١٢).

الإهداء

إلى من رفرف قلبها عليَّ كما يرف الطير
على فراخه إلى من خفق فؤادها هلعًا عليَّ
كلما أومض البرق، ودوى الرعد بصوته
المجلجل وأنا لست في أحضانها إلى من
هملت عيناها مرارًا وتكرارًا على فراقي، وعلى أَلَمٍ أَلَمَّ
بي .. إلى من غمرتني بحبها سنين عددًا ... إلى من
أمطرتني بوابل الدعاء الهتون مع قلة ما قدمت من عطف
وحنان وخدمة ... ولكن القلب الكبير هو الذي يعطي
الكثير ويرضى بالقليل ... تلك هي أمي الحنون ...
الرحيمة ... أبقاها الله على طاعته ... وغفر لها ولأبي
ولوالديها. أمين

ومرَّت سُنُون

ومرَّت سُنُون

سلم فرددت وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، جلس بمقربة مني ولكني أرى على وجهه الشحوب والهم والغم ، حادثته مالــك أخي على هذه الحال المشينة؟ أجرم وقعت فيه؟ أم همٌّ دين تريد أن تقضيه؟ أم كبد الحياة وشقاؤها؟ أم ماذا؟

استدار بوجهه إليَّ وكاد أن يبتسم، لولا سحابة غشت محياه، ثم حاول أن يحدثني، ولكن المفاجأة أن سبقته عيناه للحديث فمسح دمعًا هتونًا.

في هذه اللحظات أسعفتني ذاكرتي باسترجاع أحداث مــرت عليها السنون لأصحاب قضوا نحبهم ذاقوا من الحياة أمرها ومــن العيش أضناه ، ولكن كانوا مثلاً يحتذى بــه في تحمــل الصــعاب والمشاق وضربوا أروع الأمثال في الشموخ والإباء.

ذاك الفتى القرشي الذي عاش بين أبوين غنيين يلبســانه مــن اللباس الحرير والخز والرياش، ويتعطر بأحسن العطر وأطيبه، حــتى إذا سار في الطريق عرف الناس أنه هو، بل كان حديث حِسَان أهل مكة ، كل ما يريد مجاب، من أكل وزاد ولباس وركــاب، فهــو الابن المدلل الذي يكاد النسيم يجرح خديه إذا مــر بهمــا وتــأتي المفاجأة عندما يدخل الإيمان قلبه.

تعال معي وانظر إلى حال الشاب المدلل بعدما اغترف غرفة من فيض الهدي المحمدي، لم يعد كما تظن قد تشبث بالماضي ، حيث

الترف والليونة ... ها هي أمه تحرمه من اللباس الجميل، ومن العطر الزكي، ومن الزاد اللذيذ، ومن السمعة البراقة، بل و لم تكتف بذلك ، إنها تحبسه في الدار، وتقيده بالسلاسل القوية حتى لا يفلت منها، كل هذا من أجل لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.

أخي: انظر معي إلى هذا الشاب وهو مسلسل في قيوده، ويعرض عليه الكفر بالله، ويرفض ذلك أشد الرفض، حتى إذا خرج الصحابة رضي الله عنهم إلى الحبشة مهاجرين احتال لنفسه وهاجر معهم.

ولما رجع حاولت أمه أن تثني عزمه مرة أخرى، فقال لها: يا أُمه، إني أخاف عليك من عذاب الله، فاشهدي أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ولكنها رفضت هذا الطلب بشدة، وحاولت أن تعيده إلى الحبس والقيود، ولكنه قال لها: سوف أقتل من يقوم على حبسي، وهي شعرت أنه إذا أقسم أقسم ... فاضطرت إلى طرده من بيتها ... وحرمانه من الدلال والنعمة، والعيش الرغيد.

خرج ليعيش تحت خمائل الإسلام الوارفة وهو يودعها وتودعه على فراق لا تلاقي بعده ... تنهمل عيناهما على الفراق المرير

ها هو يقبل على رسول الله ﷺ والصحابة جلوس ... تملى الصحابة من القادم؟ فإذا بهم يعرفونه!! فرقت قلوبهم لحاله وسحت عيونهم الدمع السخي لمنظره، فلقد تعودوا أن يروه في لباس ناعم فاره ... يسبقه شذا العطر الزكي، فلا يعرفونه إلا بعطره أما اليوم فلباسه لباس قد تبدل ... فلقد كان يلبس ثوبًا مرقعًا خشنًا ... لم

يكن على محياه من آثار النعمة شيء؛ بل به النحول والشحوب من قلة الأكل فربما أكل اليوم وجاع غدًا.

عندها قال المصطفى ﷺ: «**لقد رأيت مصعبًا هذا وما بمكة فتى أنعم عند أبويه منه، ثم ترك ذلك حبًا لله ورسوله**».

ويأتي يوم أحد ... ومصعب حامل الراية تأتيه ضربة تقطع يمينه، فيأخذ الراية بشماله ... وتقطع شماله فيضم الراية بعضديه، وتأتي إليه الضربة من قفاه لتخرج من صدره فيقع وهو يقول: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٤].

لم يكترث بنفسه، وما شغله إلا خوفه أن يخلص إلى رسول الله ﷺ فيعزي نفسه بأن الموت لا محالة منه ... وتنتهي المعركة فيبحثون عن كفن له فلم يملك ذلك، ووجدوا بردة إن غطوا بها رأسه بانت قدماه، وإن غطوا قدميه بان رأسه.

أخي: انظر إلى هذه الصورة الجميلة الرائعة التي تمثل بها هذا الشاب حينما تخلى عن كل شيء في الحياة ليدخل في دين الله، وتحمل جميع المصاعب، وكلها تهون في ذات الله.

وذلك في ذات الإله وإن يشأ

يبارك على أوصال شلو ممزع [1]

وأنا أحدثه خبر هذا الصحابي الجليل – عليه رضوان الله – أتفحص ملامح وجه صاحبي فمرة يحمر وأخرى يغضب، وثالثة يقطب ويعبس ومرة يحاول أن يسري عن نفسه وما إن انتهيت من حديثي إذا به يحادثني.

صاحبي: إنها من أجمل الصور الرائعة التي يحملها لنا تاريخنا المجيد، إنك بهذه اللمسات تخفف عني بعض ما أجد ولكني سوف أحدثك عن خبري ليس خبري كما تظن.

أما علمت أن هذا اليوم يوافق الأول من محرم لهذا العام؟!!

قلت: أعرف ذلك، وما في هذا الخبر من جديد...؟

نظر إلي وقد جاوبتني عيناه بوابل من الدمع السخي حاول الحديث وهو يلملم كلماته المتناثرة المتعثرة المتكسرة على صخرة الدمعات السخية فإذا به يتمالك نفسه بشجاعة ويقول:

صاحبي: اليوم خلفت من سني عمري خمسًا وعشرين سنة وها أنا اليوم ألبس أول يوم من السادسة والعشرين إني تركت ورائي تلك السنين وفيها ما فيها ... فيها معصية ... بها تقصير في طاعة الله ... بها عصيان وتمرد أحيانًا على والدي ... بها وقت ضاع في كلام غير مفيد، بل في غيبة ونميمة وبهتان لأضحك ويضحك غيري

(١) خبيب بن عدي (رضي الله عنه) عندما صلبته قريش تريد قتله.

... بها تقصير في الصدقة والصلة.

بها إخلال في الخشوع في الصلاة ... وتأخر عن حضورها مع الجماعة ... والآن وقد ولت وسجلت في صحائفي ... فلا أدري...!!

وفجأة يقطع الحديث ويعضّ على أنامله بشدة ...

قلت له: على رسلك أخي ....

إنه يتحسر ويتندم على ما مضى ... ولم يتمالك نفسه فلقد أجهش بالبكاء ... وحاولت أن أتغلب على عيني ألا تجاويه ... ولكنهما لم تعدا لي مطيعة ... فلقد ذرفت عيناي دمعها مدرارًا ... لقد أحسست بما يعيشه من حرقة وألم وجوى ... على ساعات وليال خاليات قد مضت وسجل في صحائفها الخير والشر ... لقد طويت تلك السجلات وهي عند ربي لا يُغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

إنه يحق له ذاك الندم وتلك الحسرات بل ولا غبن على هاتيك الدمعات السخيات التي تذرفها عيناه إنه يتذكر ماذا سيفعل الله بما مضى...؟ أإن تاب وأناب وعزم فصدق عفا الله عنه؟ أم ستكون في سجله إلى يوم القيامة لا مفر ولا مهرب منها...؟ علامات استفهام واستغراب تلوح على وجهه الشاحب، وأنا أحاول أن أقف على قدمي لأخفف عن أخي ما به ولكن قد أصابني ما أصابه ومع التشجع والمحاولة تمالكت نفسي فحادثته حديثًا ذا شجون وخابرته

مخابرة فؤاد لامس فؤاد:

أخي: حفظك الله – اعلم أن الله عز وجل يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [الزمر: ٥٣].

يخاطب ربنا – عز جلاله – عباده الذين أسرفوا – أي أكثروا من المعاصي – فيقول لهم: لا تيأسوا من رحمتي ... فإني أتوب على من تاب ... بل وأبدل سيئاتكم حسنات، ولكن بصدق توبة وترك معصية، وعزم على عدم العودة وندم على ما كان من معصية الله.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: «**كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُل على راهب فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى**

أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة»[1].

انظر كيف قبله الله وهو أسود الصحائف ... ولم يعمل لله شيئًا حتى السجدة ... ولكنه كان يحمل بين جنبيه فؤادًا ملذوعًا ... نادمًا عازمًا ... خائفًا يريد التخلي عن المعاصي، ويشتاق أن يعد في ركاب الصالحين، فكانت نهايته كما علمت ... إذًا رحمة الله واسعة، بل إنه عز وجل ختم الآية السابقة بقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**﴾ فلا يأس ولا قنوط من رحمة الله؛ لأن صفة اليأس من صفات الكفار.

عندها تهلل وجهه وشاحت عن وجهه الكأبة وبدأ يُسارني بالحديث.

صاحبي: حديثك جميل ... وكلامك نور شع ضياؤه في فؤادي ... وبدَّد ما بداخلي من هم لازمني كثيرًا ولكن يا ترى هذا ما مضى، فأين أنا مما سيأتي؟!

قلت: تدرع بالخوف من الله عز وجل والبس ثوب الرجاء في رحمة الله عز جلاله فهذان جناحا المؤمن بهما يطير كما يطير الطائر، فيا ترى إذا فقد الطائر جناحًا، أيطير بجناح واحد؟ إن المؤمن كذلك لا بد له من خوف من عذاب الله، ورجاء في رحمة الله وتفاؤل في المستقبل بعمل الصالحات ... ولا أنسى أن أذكرك بما

(١) متفق عليه، وهذه رواية مسلم.

قاله العالم لقاتل المائة: «**اترك أرضك فإنها أرض سوء، وارحل إلى بني فلان فإن فيها قومًا أخيارًا يعبدون الله، فاعبد الله معهم**».

فما عليك إلا أن تكسر وبكل قوة مصادر الشر؛ من شـــريط وصورة ... وتقطع حبال من لك به رابطة معصية ... قريبًا كان أو بعيدًا، قطعًا لا رجعة بعدها ... ثم ترحل إلى بني فلان، فإن فـــيهم قومًا أخيارًا يعبدون الله، اعبد الله معهم ... فعليك بالجليس الصالح ... فهو الوسام الذي تتوشى به ... وهو المعين لك على الصـــراط المستقيم ... لتسلكه بلا اعوجاج ... إن نسيت ذكـــرك ... وإن ذكرت أعانك ... وإن خبت عزيمتك استنهض همتك من جديـــد ... حتى تسلك الطريق بعيدًا عن الأشواك والأنواء.

التفت علي وقد علت ابتسامة العزيمة على وجهه وكأنه قد فاز بشيء طالما تمناه ... فلم يحصل عليه إلا هذه اللحظات!!!

همس في أذني بحديث وقال: نعم الصديق الوفي، والأخ الناصح أنت ... فما سمعت أجمل من كلامك ولا أطيب من مذاكرتك ... فلك مني خالص الدعاء بأن يوفقك الله حيثما كنت ... ويجعلـــك نبراسًا للخير ... هاديًا مهديًا.

ورحل الشيخ

لقد أغلظ عليَّ صديقي في العتاب ... وقسا عليَّ ولم تكن هذه عادته ... الشيخ رحل ... والنجم أفل ... والمشعل انطفأ ... وأنت لا تحرك ساكنًا ...

قلت: دعني فإن لي عذرًا لو علمته لصفحت عني

قال: وما هو؟

قلت: إن الشعر لا تطاوعني عروضه ... ويتفلت مني مستفعلن فاعله

قال: أوما لك في النثر غنية عنه؟

قلت: ربما ... ولكن ليس كمثل الشعر مطية ... وصهوة جواد علية ... يستأهلها مثل شيخنا رحمه الله ... ولكن إن كان ولا بد فحسبك من النهر غرفة ... ومن النور ومضة ... ومن الشهد رشفة.

رحل الشيخ وكلنا راحل ... وانثلم في الإسلام ثلمة، لا يسدها إلا عالم رباني ... نور شع بين أظهرنا ... وعلم تدفق يروي الظماء ... وبحر لا ساحل له

سما نجمه وارتفع ذكره فحق له وقد قال تعالى: ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾ [المجادلة: ١١].

يبصر الجاهل ويبدد الجهل ويشبع طالب العلم له في عرض

الكلام فن يتقاصر الكثير عن مناله وبالحجة والدليل ألبس مقاله ... فأفاد منه العالم والمتعلم والجاهل ... لا غرو ولا عجب في ذلك؛ فإنه من مشكاة النبوة قد استقى علمه ... وعلى خطا الحبيب ﷺ رسم رسمه ... ومن هدي الخلفاء الراشدين نهج نهجه.

الشيخ رحل وله ندعو من الأعماق بأن يسكنه الله فسيح جناته ولكن ماذا نكون بعد هذا الحدث الجلل؟ الذي سبقه فقد الشيخ الإمام/ ابن باز رحمه الله هل سيؤثر فينا؟ هل سنتجاوز البكاء والرثاء إلى عمل جاد مثمر مفيد؟

في ظني أنه يجدر بنا ... ونحن نعيش هذه الآلام المؤلمة والأحداث المفجعة ... من فقد كوكبة مشرقة من العلماء الأجلاء في زمن تتلاطم فيه الفتن التي تجعل العاقل حيران أن نخط لأنفسنا ما يكون له الأثر الجميل في فقد تلك الكوكبة المهتدية.

وذلك في تربية أبنائنا وبناتنا وجيلنا على منهج السلف الصالح في طلب العلم الشرعي علَّنا في يوم ما نجد من يخلف ابن باز وابن عثيمين والكوكبة المضيئة خلفًا لخير سلف ليحملوا على كواهلهم العلم الشرعي فيبلغوه للأمة جميعها للأمة في كل مكان كما كان علماؤنا رحمهم الله جميعًا.

في تربية جيلنا وأبنائنا على حب العلماء والصالحين وجعلهم هم القدوات التي ينبغي أن يقتدى بها ليثمر لنا القدوة الصالحة في ربط أمتنا بماضيها المشرق الوضاء؛ بدءًا بسيرة المصطفى ﷺ،

ومرورًا بأصحابه الكرام والتابعين والسلف الصالح رضي الله عنهم جميعًا ... حتى يكونوا هم القدوة الحسنة الجميلة ... للشاب والفتاة، والرجل والمرأة ... لا أن تكون قدواتهم مشاهير الفن والرياضة ... لا، بل ليكن محمد ﷺ هو القدوة **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾** [الأحزاب: ٢١] حتى نكون قد استفدنا من الأحداث ... فأمتنا تنتظر من يدمل جرحها ويكفكف دمعها ويسرج خيلها ليعود لها سالف عهدها يوم أن كانت هي التي تقود ولا تقاد وترهب ولا تخاف إلا الله وحده ... وتصغي الدنيا لكلمتها.

كنا جبالاً في الجبال وربما
سرنا على موج البحار بحارا
بمعابد الإفرنج كان أذاننا
قبل الكتائب يفتح الأمصارا (١)

نعم رحل الشيخ ... ولكن لنا فيما تركه من علم غزير ... وخُلُق جميل ... وسيرة عطرة أحسن العزاء

لنا في فتاواه عبر الهاتف وعبر الأثير في «نور على الدرب» ما يؤجج مشاعرنا إلى النهل من علمه الغزير.

لنا في سيرته الندية وتعامله مع الناس بأخلاق الرسول ﷺ خير قدوة ... لنا في زهده في الدنيا وتقلله منها وسموه عن زخارفها

---

(١) محمد إقبال رحمه الله.

أجمل بيان؛ لقول الرسول ﷺ: «**ما لي وما للدنيا، وما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**»(١).

لعلنا ونحن نودع هذا الشيخ نعلم أنفسنا بأن الموت باب وكلنا داخله ... فنستعد لما أمامنا بالعمل الصالح ... وأجمل بنا أن نستمع إلى كلمته (رحمه الله تعالى) عندما علم بمرضه الذي أخفاه عن الأطباء: «إن الإنسان المؤمن إذا قام بطاعة الله وفعل أوامره واجتنب نواهيه فإنه لا يرجو بذلك إلا رحمة الله ودخول الجنة، ولا يمكن أن يصل الإنسان إلى الجنة إلا بالموت، والموت قد كتب على جميع البشرية، فمرحبًا بالموت إذا كان الموت هو الذي بيننا وبين الجنة»(٢).

هكذا كان سلفنا الصالح – رحمهم الله – فأخلق بنا أن نقتفي أثرهم وننهل من علمهم ونتدرع بكريم سجاياهم فإنهم النجوم التي يهتدي بها الساري في الليلة الظلماء.

رحم الله شيخنا ابن عثيمين وابن باز ومن سبقهم من العلماء رحمة واسعة، وجمعنا بهم في مستقر رحمته ... آمين. وصلى الله وسلم على نبينا محمد (٣).

---

(١) رواه الترمذي، باب الزهد، وقال: حسن صحيح.

(٢) «مجلة الدعوة»، عدد (١٧٧٦)، ٢٣ شوال ١٤٢١هـ.

(٣) كانت هذه الخواطر الحرَّى إثر فقد سماحة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله الذي وافاه الأجل قُبيل مغرب يوم الأربعاء لخمس عشرة خلون من شهر شوال لعام ألف وأربعمائة وواحد وعشرين من هجرة المصطفى ﷺ.

مستقيم ولكن [١]!!

عن أبي هريرة، قال: قال رجل: يا رسول الله، إن فلانة يذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها، قال: «**هي في النار**»، قال: يا رسول الله، فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصدقتها وصلاتها، وإنها تصدق بالأثوار من القط، ولا تؤذي جيرانها بلسانها، قال: «**هي في الجنة**»[٢].

صنف من الناس مستقيم ... وسيماه سيما الصالحين ويُعدُّ فيهم ... وله مساهمته ووجوده في الساحة بالكلمة والتوجيه وإلقاء الدروس وأعمال الخير بشتى صنوفها ولكن إذا جاء ذكر الآخرين فلا تسل كم له في هذا المضمار من نصيب...؟

ربما كان له نصيب الأسد ... جاءت الغيبة المحرمة وذكر مساوئ الآخرين ... هنا يستلذ الحديث ... ويطيب المقام ... فلان أخطأ في كذا ويا ليته ما فعل ... وفلان مسكين عقله صغير – وإن كان من الصالحين – ولكن ...!!

وهكذا تنهال العبارات المضحكة على أخيه، ويضحك الجميع

---

(١) إطلاق لفظ (مستقيم) أولى من (ملتزم)؛ لقوله تعالى: ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ**﴾، وفي الحديث – على صاحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم –: «**قل آمنت بالله ثم استقم**» رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (٢/٤٤٠)، وإسناده حسن، وأخرجه ابن حبان بهذا الإسناد، وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد».

الأثوار: جمع ثَوْر وهي القطعة من الأقط، والأقط: لبن جامد مستحجر.

بهذا التندر والتنقص من أخيه ... تعلو الضحكات التي يشع منـــها الاستهزاء والسخرية ... ويا ليت صاحبنا وهو يتلو القرآن كعادته وربما كان له حافظًا، توقف عند قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ**﴾ [الحجرات: ١٢].

يجيء النهي عن الغيبة في تعبير عجيب، يبدعه القرآن إبـــداعًا: ﴿**وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا**﴾، ثم يعرض مشهدًا تتأذى لـــه أشـــد النفوس كثافة وأقلها حساسية، مشهد الأخ يأكل لحم أخيه ميتًـــا ...!! ثم يبادر فيعلن عنهم أنهم كرهوا هذا الفعل المثير للاشمئـــزاز، وأنهم إذن كرهوا الاغتياب.

وقال أبو داود: حدثنا مسدد، حدثنا يحيى، عن سفيان، حدثني علي بن الأقمر، عن أبي حذيفة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا (قال عن مسدد: تعني قصيرة)، فقال ﷺ: «**لقد قلت كلمة لو مزجـــت بمـــاء البحـــر لمزجته**»[1].

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**يا معشر مـــن آمـــن بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعـــوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورات المسلمين يتبع الله عورته، ومـــن**

(١) «في ظلال القرآن» ٣٣٤٧/٦).

يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله»، قال: ونظر ابن عمر يومًا إلى الكعبة فقال: «ما أعظمك وأعظم حرمتك**!!** وللمؤمن أعظم حرمة عند الله منك»(١).

أخي: اصغ سمعك إلى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ [الحجرات: ١١].

ثم استمع بعد ذلك إلى ما قاله سيد قطب رحمه الله حول هذه الآية: «إن المجتمع الفاضل الذي يقيمه الإسلام بهدي القرآن مجتمع له أدب رفيع، ولكل فرد فيه كرامته التي لا تُمس، وهي من كرامة المجموع، ولَمْزُ أي فرد لَمْز لذات النفس؛ لأن الجماعة كلها واحدة، كرامتها واحدة، والقرآن في هذه الآية يهتف للمؤمن بذلك النداء الحبيب ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا**﴾ ، وينهاهم أن يسخر قوم من قوم، أي رجال من رجال، فلعلهم خير منهم عند الله، أو أن يسخر نساء من نساء، فلعلهن خير منهن في ميزان الله ...

وقد يسخر الرجل الغني من الرجل الفقير، وقد يسخر الذكي الماهر من الساذج الخامل، وقد تسخر الجميلة من القبيحة، والغنية من الفقيرة، ولكن هذه وأمثالها من قيم الأرض ليست هي المقياس،

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/٣٦٥-٣٦٦).

فميزان الله يرفع ويخفض بغير هذه الموازن!»[١].

ثم استمع إلى الصفات التي هي من ركائز الإيمان: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾ [المؤمنون: ١-٣].

روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل، فلبثنا ساعة، فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال: «**اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا، ثم قال: لقد أنزل علي عشر آيات، من أقامهن دخل الجنة**، ثم قرأ: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ**﴾، حتى ختم العشر.

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ**﴾، قال ابن كثير رحمه الله: «أي عن الباطل، وهو يشمل الشرك كما قاله بعضهم، والمعاصي كما قاله آخرون، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى: ﴿**وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا**﴾ [الفرقان: ٧٢]، قال قتادة: أتاهم والله من أمر الله ما أوقفهم عن ذلك»[٢].

معاذ بن جبل الفقيه ... يسأل الرسول ﷺ فيقول: «... وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال له الرسول ﷺ: **ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا**

(١) «في ظلال القرآن» (٦/٣٣٤٤).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/٥٥٨-٥٥٩).

حصائد ألسنتهم؟»[١].

والحديث السابق عن المرأة الصالحة التي ذُكرت عند المصطفى ﷺ أنها لها صلاة وصيام وذكر وأعمال ... قالوا: ولكنها تؤذي جيرانها، فماذا كان رد المصطفى ﷺ. قال: «**إنها في النار**»، يا لها من فجيعة ومن مصاب جلل عندما يقدم المسلم أعمالاً صالحة ويظن نفسه أنه من أهل الجنة.

ويأتي التقرير من الذي لا ينطق عن الهوى: إنها في النار!! أسمعت خيبة أعظم من هذه الخيبة...!! وخسارة كهذه الخسارة، التي لا تتعوض بحال...؟ ولم يبق إلا رحمة الله ... والله المستعان.

لم تنفعها تلك الأعمال؛ لأن حرمة المسلم عظيمة، وقد ذكر الرسول ﷺ في حجة الوداع: «**ألا أي شهر تعلمونه أعظم حرمة؟** قالوا: ألا شهرنا هذا، قال: **ألا أي بلد تعلمونه أعظم حرمة؟** قالوا: ألا بلدنا هذا، قال: **ألا أي يوم تعلمونه أعظم حرمة؟** قالوا: ألا يومنا هذا، قال: **فإن الله تبارك وتعالى قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم إلا بحقها؛ كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، ألا هل بلغت؟ ثلاثًا، كل ذلك يجيبونه:** ألا نعم، قال: **ويحكم أو ويلكم لا ترجعن بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»[٢].

---

(١) من حديث طويل رواه الترمذي، باب الإيمان، وقال: حسن صحيح.

(٢) رواه البخاري، باب المناسك.

وفي الحديث: «**لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم**»[1].

إذن لا نستغرب عندما يحكم الرسول ﷺ على تلك المرأة التي آذت إخوانها بالنار، فقد يكون الإيذاء باللسان بالسبِّ والنبز بالألقاب، وإلقاء التهم، والغيبة والسخرية ... فالمسلم له الحصانة والحُرمة التي أضافها عليه الإسلام ... فلا أحد يستطيع اختراقها إلا من عرض نفسه للعقوبة في الدنيا والآخرة.

فهل يعي جيلنا المستقيم خاصة وغيره عامة هذا الأمر، ويعطيه الحظ الأوفر من التربية والتدريب على مسك اللسان وفلتاته ... وترويضه على قول الخير ... والكلام الجميل الذي يكون له ذخرًا يوم يلقى ربه ثم ذكر الصور الجميلة عن أخيه بدلاً من السيئة ...؟!!!

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها
كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه [2]

ثم لا ينسى أن يَذُبَّ عن عرض أخيه عندما ينتهك ... وفي الحديث: عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «**من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة**»[3].

---

(١) رواه الترمذي، باب الدِّيَات، وقال: هذا أصح من حديث ابن أبي عدي.

(٢) يزيد بن خالد المهلبي.

(٣) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

فيكون مشعلاً يستنار به الطريق، وريحانة تعطر المجلس بشـــذا ريحها العبق الزكي المحمدي ... وعلمًا يقتدى بسمته كما يُهتـــدى بوعظه.

سَجِيَّةٌ ... مَنْسِيَّةٌ

ثارت حفيظته ... تغير وجهه ... طاش عقله ... يتكلم فلا يدري ما يقول...

هون عليك لعل في الأمر خيرًا واستعذ بالله من الشيطان الرجيم لعله يندحر ... اهدأ واطمئن لنعرف معًا القضية فنجد لها حلاً وعلاجًا.

أرسل إلي نظرات حادة ... يتطاير منها شرر الغضب بوجه عبوس مقطب الجبين حتى ارتجف جسمي منه خلعًا وسقط ما بيدي رهقًا.

أنت لم تعرف ما حصل لي و لم تدر هول ما وقع بي ... عندما أعرض عني صفحًا ... وطوى عني كشحًا، وتطاول علي تيهًا، أُبادئه التحية فلا يرد علي ... أُزجي إليه السلام فلا يُسلم علي...

قلت: أخبرني من صاحبك لعلني أوفق معه وأهتدي إلى سبيل يرده إلى الرشد والسلامة.

إنه حسن ، زميلي ورفيق دربي ومع ذلك كله حصل منه ما حصل.

ربَّتُ على كتفه ، وهونت الأمر عليه ، وأن الإنسان معرض للخطأ والنسيان «**كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**»[1]

---

(١) رواه الترمذي، وقال: حديث غريب.

... عندها انحلت عقدة جبينه وصفا وجهه من العبوس ... وقلـــت له مازحًا: «لن أصاحبك بعد اليوم؛ لأنك إن غضـــبت فســـوف أكون الضحية!!!» عندها تبسم تَبَسُّمَ المحرج من صـــاحبه وكأنـــه يعتذر مما وقع.

وتمر الأيام ويجمع الله بيني وبينه وبين صاحبه حسن في مجلس صغير فكان أن استأذنت ودلفت أحدث المجموعـــة وأنـــا أعـــني أحدهم.

إن لديننا العظيم سجايا وأخلاقًا كريمة وصفات نادرة يتميز بها عن غيره من الأديان ومن كريم هذه السجايا خصلة جميلة ســـهلة الأداء يسيرة العطاء عظيمة الأجر والثواب كبيرة التأثير في النفـــوس لها بلسم يشفي الفؤاد أتدري أخي ما هي ...؟ إنها التحية ... تحية أهل الجنة.

﴿**تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ**﴾ [الأحزاب: ٤٤] ... إنها إزجاء السلام على من عرفت ومن لم تعرف ... فقد روى البخـــاري في «صحيحه» عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رجلاً سأل النبي ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: «**تطعم الطعام، وتقرأ الســـلام على من عرفت ومن لم تعرف**»[1] ... السلام هو السلامة من كل سوء.

إنك بإلقائك هذه التحية على أخيك المسلم لتدخل على نفسه

(١) رواه البخاري.

السرور والبهجة والرضا والطمأنينة ... كيف لا وهي تحية أهل الجنة ... كيف ولا وهي اسم من أسماء الله جل جلاله ... كيف لا تضفي هذه التحية الرحمات والسكينة وهي من الرحمن الرحيم عز وجل ...؟ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**خلق الله آدم وطوله ستون ذراعًا، ثم قال: اذهب فسلم على أولئك من الملائكة، فاستمع ما يحيونك، تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه ورحمة الله ...**»(١).

إنه السحر الحلال يسل السخيمة من النفس ويذهب غيض الفؤاد ويلقي بأشعة الإيمان لتبدد ظلام الجاهلية وتذهب الحقد والحسد من النفس البشرية الضعيفة.

عندما يُلقي عليك أخوك السلام تتفتح أسارير وجهك وتستبشر بالبشرى ويذهب الشيطان إلى طريقه وتحات ذنوبكما كما يتحات من الشجرة ورقها ... قال ﷺ: «**إن المسلم إذا لقي أخاه فأخذ بيده تحات عنهما ذنوبهما كما يتحات الورق من الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف وإلا غفر لهما ولو كانت ذنوبهما مثل زبد البحر**»(٢).

إنه السبيل لدخول الجنة ... عن أبي هريرة قال: قال رسول الله

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦/٢٥٦)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: رجاله رجال الصحيح، غير سالم بن غيلان، وهو ثقة، «مجموع الزوائد» (٨/٣٧).

ﷺ: «**لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أَوَلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم**»[(١)].

قاطعني باسل قائلاً:

أخي الغالي: عندما ترفع كفك بحرارة لصاحبك مقرونة بالسلام ... ثم لا تجد عنده أي حراك ولا أي همس ... ليخيل إليك أنك ما أسمعته صوتك ... ولكنه قريب يراك ويرى كفك ترفعها ... وشفتيك تحركهما بالسلام ... ولكن هذه المرة ما سمع ... فاحملها على أحسن محمل ... تعاود مرة أخرى وثالثة ورابعة، والمنهج نفس المنهج لا يتغير فيه شيء ... ترى لماذا يفعل معك هذا؟ ... لست أدري.

البدء بالسلام سُنَّة؛ لأنه يخرج من النفس الراضية الطيبة التي لا تحمل بين جنبيها لأخيها إلا كل خير ... ويتعين الرد بالوجوب؛ لأن في عدم الرد تجاهل الشخص المسلم الذي أذل نفسه بالبدء ... وتحامل عليها ليحقق قول رسول الله ﷺ: «**وخيرهما الذي يبدأ بالسلام**»[(٢)] ... وليزيل في نفسه كبرياء يلبسها الشيطان لضعاف النفوس ... فإذا كان التجاهل من المسلم عليه و لم يرد ... أو رد بينه وبين نفسه ظانًا أنه قام بالواجب ... فإن الإثم حاصل ... لأن المسلم أسمعك صوته ... وأراك كفه وتبسمه ... فأين الرد

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري، وأوله: «لا يحل لرجل ...».

بالأحسن أو بالمثل ...؟ **﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾** [النساء: ٨٦].

إنه بعمله هذا يُغذّي في نفسه كبرياء وعظمة يوهمه الشيطان بها ... مسكين هذا ... ربما يرى في أسلوبه هذا تربية أو تأديبًا لصاحبه فيحتسب الأجر على ذلك كما يوحي إليه الشيطان ... جاء في تفسير القرطبي رحمه الله قوله: «أجمع العلماء على أن الابتداء سنة مرغب فيها، ورده فريضة؛ لقوله تعالى: **﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾**»[1].

استأذن فهد بمداخلة فقال: وربما يكون هناك واجب آخر يُضاف على السلام كواجب الصلة والرحم فيكون الأمر أعظم وأجل.

أخي: على رسلك، فأنت وأنا لسنا من أهل هذه الدار، فقد جاء أحد الناس إلى أبي الدرداء ودخل بيته فقال: يا أخي، ما أجد في بيتك متاعًا ولا مالاً ... فقال: إن لنا دارًا نرسل لها صالح متاعنا ... فقال: ولكن لا بد لكم من متاع ... فقال: إن صاحب الدار لا يرضى لنا بالمقام فيها...

ثم استمع إلى عمر وهو ينظر في دار أبي عبيدة وهما من العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنهما ... «غيرتنا الدنيا إلا أنت يا أبا عبيدة».

---

(١) «تفسير القرطبي» (٢٩٨/٥).

إذن كلمة تدخل بها السرور على أخيك ... إنها كلمة عظيمة وأجرها عظيم ... ومن الأعمال الجليلة إدخال السرور على قلب امرئ مسلم ... لأن الشيطان وحزبه يدخل الحزن والكآبة بالوسواس والاتهامات والبغضاء في قلب المسلم على أخيه كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ [المجادلة: ١٠]، أما المؤمن فهو الذي يحمل راية التوحيد؛ لأن السلام راية السرور والبهجة والحب.

فـ«**تبسمك في وجه أخيك لك صدقة**»(١). فلا تتردد في إفشاء السلام ورده؛ لأن هذه السمة لتحكي لك شخص الإنسان ... فإن الإنسان الذي هذه سجيته ... قد سما بنفسه إلى العلا ... وحملها على كريم الأخلاق الحسان ... وروض النفس على التحلي بسنة الرسول ﷺ، فأكرم به من رجل ... وأنعم به من صاحب ... ترى نفسه المعالي لها سُلمًا ...

أما صاحبنا الذي يتعثر ويتبعثر ويتلعثم ... عندما يريد أن يفشي السلام على أخيه ... أو يرد عليه سلامه بأحسن أو مثل ... فإنه بئس الخلق وبئس الرجل هذه صفته ... إن الجهل يتعشعش في عقله ... ويفرخ الكبر الموهوم بين جنبيه ... وما زاد على أن أضاف إلى سجله سيئات ... وفتح للشيطان قلبه ليرتاح فيه ... فما

---

(١) رواه الترمذي، وقال: حديث غريب.

ظنك بشخص قد تربع الشيطان على فؤاده ...

إنه خلق ذميم أربأ بأخي المسلم أن تكون هذه سجيته، أو يكون الشيطان دليله وقرينه ...

الجميع شارك في الحديث عن القضية حتى إن صاحبنا بدأ يتفاعل بالابتسامة والتأثر ... وبعد انصراف المجموعة ... خلا بي أحمد وشكرني كثيرًا على حسن العرض ... ومعالجة الموضوع بأدب واحترام ... قلت: لعل الله أن ينفع به ويهدي صاحبك ... آمين.

وتمر الأيام والليالي ... فإذا بصاحبنا حسن أراه من بعيد في الفلاة قد خلا به الشيطان يحاول طرده ولكنه في سجال ... مرة يصرعه الشيطان وأخرى يتغلب عليه ... حتى إذا دنا من أنوار المدينة ... ودنا من الثلة الصالحة ... وسمع قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ**﴾ [الحديد: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ [الحجرات: ١٠]، فلت من ربقة الشيطان وأوهامه ... ودلف بأمان إلى دوحة الإسلام العظيمة ... حتى إذا رأى أخاه هش وبش في وجهه وأفشاه السلام ... وإذا أحد سلم عليه رد عليه بأحسن منها ... بابتسامة المؤمن الذي يحتسب عمله لله عز وجل. استجابة لقوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأنعام: ١٦٢].

فكان قبسًا يستضيء من الهدي المحمـــدي، ويُـــنير الـــدرب للآخرين.

المُغَامَرَةُ الْجَرِيئَةُ

عرفته متهاونًا مستهترًا لا يرى عليه حقًا لأحد ... يسهو ويلعب ويسرح ويمرح له من الثلة الفاسدة شر عون على الظلم والعدوان ... التقيت به مرارًا وكان لي معه مساجلات ... ووقفات ... ولكن لا حياة لمن تنادي، ومع ذلك كنت أعزي نفسي بقوله تعالى: ﴿**إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ**﴾ [الشورى: ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**﴾ [القصص: ٥٦].

وذات مرة وهو بجانبي ... أخذ يلهو بالمسبحة كعادته ... وقد وضع رجلاً على أخرى ... ويود أن يشعل السيجارة لولا حياء تغشاه بوجودي ... همست في أذنه ...

أخي: حتى متى هذه الغفلة ...؟ حتى متى هذا النكوص والإعراض عن طاعة الله؟ إلى متى سيبقى يتصاعد هذا الدخان من فمك الطاهر الذي يشتاق إلى ذكر الله والتلذذ بحديثه؟ إلى متى ستعيش على هذه الحال؟ ألم تعرف زيدًا وأحمد وإبراهيم؟ لقد عادوا إلى الله وتركوا الشيطان وحزبه.

التفت إلي وعلامات الاستفهام والاستغراب على محياه ... صحيح ما قلت؟ قلت: نعم ... وهل جربت علي كذبًا؟ قال: لا ... بدأت أحدثه حديثي ولكنه شرد بذهنه عني سارحًا ... وفجأة توقفت عن الحديث فانتبه وكأنك قد أيقظته من النوم.

قلت: ما بك؟ قال في تلعثم: لا شيء

قلت: أخي الكريم، قرناء السوء أغروك حتى وقعت في حمأة المعصية ... عن طريق المغامرة والتجربة ... أليس كذلك؟ قال: بلى ...

قلت: أما أنا فسوف أعرض عليك مغامرة ربما تكون جديدة من نوعها ... فهلا تجرب وتغامر معي!! استدار بوجهه إلي متهللاً فرحًا مسرورًا ... بأي شيء أغامر معك ...؟

غامر وجرب معي سلوك درب المصطفى ﷺ تجشم واترك ماضيك الأسود ... حاول واخلع أسمال المعصية البالية ... تحد القرناء ... وداوم على الصلاة مع الجماعة ... بر بوالدتك فلم يعد لك في هذه الدنيا إلا هي بعد وفاة والدك رحمه الله. وقد قال أحد السلف لما توفي والده: اليوم أُغلق باب من أبواب الجنة، وبقي لي واحد يعني والدته ... فاحرص على طاعتها والزم رجليها فثم الجنة ... عليك باستبدال الشريط الغنائي التافه بالشريط المفيد

قال: لقد أكثرت علي فبأي شيء تريدين أغامر؟ اختر لي واحدة ... قلت: عليك بالصلاة ... قال: اتفقنا.

وتمر الأيام والشهور و لم أعد أراه لكثرة أعمالي وبعد مسكنه عني... أحاول السؤال عنه ولكن الإجابات لا تشفي الغليل... ويقدر الله أن أحضر محاضرة في أحد مساجد المدينة لأحد العلماء... فكم تمنيت أن صاحبي من بين الحاضرين... لأنها كانت

محاضرة قيمة تداوي الجراح وتروي الظمآن وتلامس شغاف القلوب.

حديث الشيخ كأنه موجه إلى صاحبي فكم تفرست في وجوه الحاضرين لعلي أجده بينهم ولكني عدت أدراجي لم أره فعزيت نفسي عندما رأيت آلة التسجيل؛ تسجل هذه المحاضرة وقلت في نفسي أول نسخة منها ستكون أجمل هدية إليه.

وعقب الصلاة ذهبت إلى سيارتي فإذا بشخص واقف عندها ... أول مرة أراه ... كث اللحية ... شاب في مقتبل العمر ... يظهر عليه سيما الصالحين ... قلت في نفسي: ربما أن سيارتي قد أغلقت عليه الطريق ... لا ... لا ... لا أدري.

سلمت عليه، فرد علي والتزمني ... حاول أن يقبل رأسي، ولكني جاهدته كثيرًا حتى تفلت منه.

أأنت فلان...؟ قلت: نعم، وأنت؟ قال: أنا عبد الرحمن ... استضفته معي إلى المنزل ... وكان اللقاء جميلاً جدًا ولكني لم أعرف الرجل حتى الآن ... ودار حديث ذو شجون ... وكأنه يلمح على محياي علامات استفهام واستغراب ... قال: لعلك تريد أن تعرف من أنا؟ اسمي عبد الرحمن، جئتك أحمل رسالة شفهية من زميل لي تعرفت عليه واهتديت على يديه، إنه صالح ... الذي كان لك معه لقاءات وتوجيهات ونصائح ومغامرات ... وجرب ما أوصيته به فانتفع بذلك نفعًا عظيمًا ... وهو يحملني إليك رسالة

عظيمة ...بالسلام والدعاء في ظهر الغيب.

قلت: أين مكانه الآن...؟ فإني لمشتاق إلى مرآه الجديد والجلوس معه مرة أخرى . قال: إن نفسه غلبته على الجهاد ... فلازمه ملازمة الظل لصاحبه ... ولم يعد يستطيع التخلي عنه ... وكان يبكي كثيرًا على ماضيه السيئ ويقول: لعل الله أن يرزقني الشهادة فيغفر لي ما سلف وكان.

قلت: لعل الله أن يجمع بيني وبينه مرة أخرى على خير ... وبعد تناول الطعام طلب الانصراف ورغبت أن يبيت عندي، ولكنه اعتذر بأدب فأذنت له ... وتمر الأيام والليالي وأنا دائم التفكير في صاحبي لعل لقاء يكون.

وإني لأهوى النوم في غير حينه

لعل لقاء في المنام يكون (١)

ويأتي ذلك اليوم الذي تهددت فيه آمالي وتطايرت تطلعاتي وانلذع فؤادي وانهمل دمعي على خدي مدرارًا.

ذاك اليوم الذي دخلت فيه المسجد لأصلي الظهر وبعد الصلاة ... قالوا: صلوا على الميت يرحمكم الله ... فصلينا ودعونا له ... ولما انقضت الصلاة همست في أذن جاري: من المتوفى؟ قال: رجل كان في الجهاد وطلبته أمه ليرجع إليها فهي لا تستطيع الحياة بدونه ... وفي الطريق وقد اقترب من المدينة كان الحادث وكان منيته ...

---

(١) قيس بن ذريح.

يقال له صالح ... فرحمه الله رحمة واسعة ... لم أعد أستطيع أن أغالب عيني وإن كنت جلدًا مرارًا ... فإن هذه الساعة لم تسعفني قواي للمواجهة... فَنَدَّ الدمع السخي من العين ... ثم انهمل ... والرجل يرقب المنظر مستغربًا ... قلت في نفسي: «ويل للشجى من الخلي»[١]. تبعته معهم إلى المقبرة وواريناه في قبره ودعونا له.

ثم رجعت ورجلاي لا أستطيع حملهما من هول المصيبة ... كنت مشتاقًا أن تكتحل عيناي بمرآه ... وأن تلذ أذني بسماع خطابه وحديثه ومغامراته الجديدة ...ولكن قضاء الله وقدره وما شاء فعل ... فله الحمد على ما أعطى، وله الشكر على ما أخذ ... فبيده الأمر من قبل ومن بعد ... فسبحانه جل وعز وتقدس لا يسأل عما يفعل ... والحمد لله على كل حال...

رجعت إلى المنزل لأرتاح قليلاً وأدعو لصاحبي ثم أذهب فأعزي أهله ...فإذا بالباب يُطرق وكان الطارق عبد الرحمن ... سلم، فرددت: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ... وعزيته في صاحبه وكان متأثرًا جلدًا لهول المصيبة ... فواسيته ومسحت ما على فؤاده من الحزن بالكلمة والأمل في مغفرة الله له ... وإن كنت بداخلي أنا المصاب ...!!

وبعد تناول الشاي أخرج إلي ورقة وقال: هذه رسالة من أخي

(١) مَثَلٌ يضرب للشخص يحمل همومًا كثيرة، وهو الشجي، وصاحبه خاليًا من الهموم ... سالي النفس والخاطر ... وهذا هو الخلي، فربما عاتب الخلي الشجي وهو لا يعرف عن حاله شيئًا.

صالح أرسلها إليك قبل وفاته وكأنه قد أحس أنه لـــن يـــراك ... أخذتها ووضعتها على المنضدة ... وبعدما انصـــرف اتجهـــت إلى مكتبتي الصغيرة ثم حاولت فتح الرسالة ... فكان دمعي يســـابقني على فتحها ... وقد كان أمل في لقاء ولكن قدر الله وما شاء فعل ... ولعل اللقاء يكون عند الجليل في جنات النعيم، فإذا فيها بعـــد البسملة والحمدلة ...

أخي الحبيب، أخي الغالي، أخي الفاضل: لا أستطيع أن أجزيك على ما قدمت لي ولكن حسبي من ذلك أني في كل صـــلاة لـــن أنساك من دعائي.

أخي الكريم: لقد انتشلتني من وطيس المعاصـــي ... والـــذل والهوان ... لقد أضأت في قلبي نورًا يشع بالهدى والإيمان ... لقـــد مزقت ظلامي الحالك ... وبددته إلى غير رجعة إن شاء الله ... لقد غامرت كثيرًا كثيرًا ولكن كانت في معصـــية الله ... في شـــرب الدخان ... في المخدرات ... فيما يغضب الله ... أما وقد نصحتني أن أغامر فأنا أحب المغامرة ... بكل قوة أيا كانت المغامرة، ولكن كانت هذه المرة في طريق لم أسلكها من قبل ... وكثيرًا ما ترددت في خوض غمارها ... ولكن من باب التحدي وباب المغامرة دلفت إلى هذه المخاطرة الجديدة، فقط من باب المغامرة ...!!

وكانت مغامرة جميلة ورائعة ولكنها في البداية كانت صـــعبة وشاقة ... ليست كمغامراتي التي أعرفها، فقد كانـــت مغـــامراتي سهلة في البداية جدًا ومغرية جدًا، ولكن خواتيمها مرة بل علقمًـــا

يتوسط الحلق فلا نازلاً ولا صاعدًا ... ولأني جلد على المغـــامرات واصلت مغامراتي الجديدة ... نعم كانت مغامراتي الأولى في الصلاة ... فنعمت المغامرة ونعم الموصي بها.

صحيح أني تعبت قليلاً ... ولكني وجدت لها طعمًا ومـــذاقًا آخر غير المغامرات السابقة ... ومنا هنا أناشد أصحابي الســـابقين وأصحاب المغامرات الفاسدة أن يجربوا هذا الطريـــق ... وهـــذه المغامرات المفيدة، فإنها والله لأجمل مغامرة عرفتها في حياتي ... فيها التعب والمشقة ولذة المغامرة ... ثم الطمأنينة التي تحصلت عليها ... ومن سيئ المغامرات؛ مغامرة قديمة ... كانت مع فتاة اسمها رائـــع ... إنها مي ... مي الباسمة ...مي المستهترة ... مي ذات الجمـــال البارع ... سلبت عقلي منذ سمعت صوتها لأول مرة ... وكانت في قلبي أوقع عندما شاهدتها وجهًا لوجه ... تعرفت عليها عن طريق سماعة الهاتف وكانت لي معها مغامرات كثيرة ... ليس هناك داعٍ لسردها ... ولكني عدت إلى ربي وتركـــت تلـــك المســـامرات والمهاتفات واللقاءات ... التي تـــؤدي بالإنســـان إلى الهاويـــة ... والغريب أخي الفاضل أنها ما زالت تكلمني عبر الهاتف، وتلح معي بالحديث أن أرجع لها الماضي التعـــيس ... تقـــابلني في الشـــارع فتلاحقني بسائقها ... ترسل علي النظرات تلو النظـــرات علـــي أعطيها وعدًا ... كلمة لينة ... لقاء ... ولكن دون جـــدوى ... إنني أخشى على نفسي ...

ما الحل أيها الأخ الفاضل؟ أرشدني ... دلني علـــى الطريـــق

المناسب للتخلص من هذا المأزق ... ربما تقول لي: لـــو صـــبرت ودعوتها إلى الحق ... ودعوت لها بالهداية لأرجـــو أن الله يُعينـــك ويهديها **﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَــزْمِ الْــأُمُورِ﴾** [لقمان: ١٧]. أجيبك أخي إني قد فعلت ولكن الهداية بيد الله.

أخي الحبيب: شوقي يحدوني لمرآك وأملي يســوقني لســماع حديثك الشجي ... وإلى كلماتك النيرة المشرقة التي طالما أعرضت عنها صفحًا ... ولكن لا أدري أيكون لقاء مـــرة أخـــرى ... إني لأرجو ذلك...!!

فهـــل مـــن لقـــاء معـــرض أو تحيـــة
مع الركب يغشى أو مع الطيف ســـاريًا (١)

فإن يكن نستزد من المغامرات الجميلة ... والحديث العـــذب الموشي بكلام الله عز وجل وكلام الحبيب ﷺ، وإن لم يكن لقاء في الدنيا فعند الله اللقاء **﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِـــدْقٍ عِنْـــدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾** [القمر: ٥٤، ٥٥].

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

أغلقت الرسالة لأضعها في الظرف وكأني أضغط على فؤادي من شدة الأسى والحزن ... وأنا أقول: وعليكم السلام ورحمـــة الله وبركاته ...

---

(١) ابن خفاجة.

أما وقد كنت عند ربك الآن، فإني لأرجو من الله عز وجل أن يشملك بعفوه ورحمته، وأن يجمعنا بك في الفردوس الأعلى.

إذا ما خيل حل في برزخ البلى فحسبي به نأيًا وبعـــد لقـــاء (١)

---

(١) أبو العتاهية.

رسالةٌ من مُحِبٍ

حمدًا لله، وصلاةً وسلامًا على الحبيب الذي علمنا الصدق والحب ﷺ.

علو في الحياة وفي الممات

لحق أنت إحدى المعجزات [1]

سمو عن الدنايا ... ورفعة عن الهنات ... وشموخ بحق لا يفله نعيق ناعق .. إنها عزة المسلم وإباؤه الذي يتحدى الصعاب ... لقد ذكرني الشاب الذي هزأ بكسرى وملكه ... وقال: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، وجئناكم لنخرجكم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ... إنه ربعي بن عامر الذي عمر الإيمان قلبه ... ونور الدين صدره ... فلم يعد يرى إلا بنور الله ...شذرات وهمسات ... أرق من الندى ... وأطيب من العبير ... أرسلها إلى من تربطني به وشيجة التقوى ... وعشنا معًا تحت ظل المحبة في الله «عسى الله أن يظلنا تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله».

واهتز قلمي طربًا فرحًا بأنه سوف يكتب له هذه الكلمات المتناثرة على ما فيها من الوهن ... ولكن حسبك من الشهد لعقة ... فلربما شفتك وروت غليلك ... وعافتك مما يؤلمك ...

إنها سطور يشع من بين جنباتها الضياء ... وتتلألأ من أطرافها

---

(١) أبو الحسن الأنباري.

ومضات الإيمان ... وينير من سنا كلماتها الصدق والإخلاص.

أخي الحبيب: لك أزجى تحية عطرة ... طيبة مباركة ... فسلام الله عليك ورحمة الله وبركاته ... قال تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾ [البينة: ٥]. وصاية الله للأمة تحقيق العبودية التامة المقرونة بالإخلاص ... نعم إنه الدين القيم الذي حفظ للناس حقهم وكرامتهم وجعل المسلم أعز وأقوى بذله لله عز وجل ... بينما عبَّاد الشهوات والأهواء فقد ذلوا أنفسهم لها ... فلم يرفعوا رأسًا بهذا الدين ... فكانوا أذل وأصغر ... كما قال أحد السلف رحمه الله: «والله إن ذل المعصية لا يفارق جبينهم، وإن هملجت بهم البغال» أي ركبوا أعز مركوب وأغلاه في ذاك الوقت، ونحن نقول: ولو طارت بهم الطائرات الخاصة إلى حيث شاؤوا، فإن ذل المعصية قد خط على جبينهم حتى يعودوا إلى المنهج الصحيح.

أخي الحبيب:

أمتنا مكلومة ... كالطير مقصوص جناحاه ... تنتظر من يدمل لها الجراح ... ويمسح عن جبينها الذل ... ومن يعيد لها سالف أيامها ... تلك الأيام المشرقة ... الوضاءة التي استضاءت بنورها المعمورة ... تلك الصورة التي يطرب لذكرها المسلم ... ويخنس لذكرها الكافر والمنافق.

أخي الحبيب:

إن أمتنا تحتاج منا أن نعطي الكثير ... من أوقاتنا ... من أموالنا ... من أفكارنا ... من جهودنا ... مما نستطيع ﴿**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**﴾ [آل عمران: ٩٢].

أبو الدحداح الصحابي الجليل – رضي الله عنه – عندما اشترى نخلة في الجنة «وطوبى من شجر الجنة يسير الراكب تحتها مائة عام لا يقطعها»، بماذا اشتراها يا ترى؟ بكل ما يملك، إنه البستان الكبير به ما تشتهيه كل نفس وتلذ العين به ستمائة نخلة وبئر وبيت فيأتي إلى أُم الدحداح ويقف عند الباب ويقول: يا أم الدحداح، اخرجي أنت وأبناؤك من البستان، فقد بعناه ... ولا تأخذوا معكم شيئًا ... قالت: إلى من بعته؟ قال: إلى الله، قالت: ربح البيع يا أبا الدحداح.

«عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لفلان نخلة وأنا أقيم حائطي بها، فمره أن يعطيني حتى أقيم حائطي بها، فقال له النبي ﷺ: **أعطها إياه بنخلة في الجنة، فأبى،** فأتاه أبو الدحداح، فقال: بعني نخلتك بحائطي، ففعل، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد ابتعت النخلة بحائطي، قال: **فاجعلها له فقد أعطيتكها، فقال رسول الله ﷺ: كم من عذق رداح لأبي الدحداح في الجنة. قالها مرارًا.** قال: فأتى امرأته فقال: يا أم الدحداح، اخرجي من الحائط،

فإني قد بعته بنخلة في الجنة، فقالت: ربح البيع أو كلمة تشبهها»[١] إنه استفاد من العرض ... واستغفل الفرصة ... وهكـــذا اللبيـــب العاقل ... فالحياة فرص ... ولا تتكرر ...

ويقول تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [العنكبوت: ٦٩]، أطلق ســـبحانه الجهـــاد ولم يحدده بشيء ... ليشمل كل شيء ... حتى الابتسامة التي لا تكلف شيئًا، نحن بحاجة إليها فــ«**تبسمك في وجه أخيك لك صدقة**»[٢].

وكانت هذه سمة النبي ﷺ، فــ«عن جرير بن عبد الله قال: ما حجبني رســـول الله ﷺ منـــذ أســـلمت، ولا رآني إلا تبســـم في وجهي»[٣].

بحاجة إلى إزالة الأذى عن الطريق ... «... **وتميط الأذى عن الطريق صدقة**»[٤] ... بحاجة إلى الكلمة الصادقة التي تربي الأجيال على التقوى بحاجة إلى الصدقة نمسح بها دمعات تترقرق في عـــيني اليتيم والبائس الفقير.

بحاجة إلى تطهير القلب من الغل والحقد والحسد «**لا يـــؤمن**

---

(١) رواه الحاكم في «مستدركه» (٢/٢٤)، ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢/٣٠٠)، ورواه أحمد بلفظ: «كم من عذق راح»، وإسناده صحيح على شرط مسلم. انظر: «الموسوعة الحديثية مسند أحمد» (١٩/٤٦٥). رداح: ثقيل.

(٢) رواه الترمذي، وقال: حديث غريب.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) رواه مسلم، وأوله: «كل سلامي من الناس ...»

أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[(١)].

ولا يفوتنا خبر الصحابي الجليل – رضي الله عنه – الذي شهد له الرسول ﷺ بالجنة بقوله: «**يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة**»، فكان هو الداخل. فيا ترى ما المؤهل الذي حصل عليه لدخول الجنة؟ استمع إلى قوله: «... غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشًا، ولا أحسد أحدًا على خير أعطاه الله إياه»[(٢)].

أخي الحبيب:

للمسلم في هذه الحياة هدف عظيم وسام نبيل ينبغي أن يكون نصب عينيه حيثما كان ... إنه تحقيق الطاعة التامة لله ورسوله في حياته كلها ... في أكله، في نومه، في لعبه المباح ، كل ذلك أن يكون عونًا له على طاعة الله فيحتسب له الأجر في ذلك ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وقف تام وتجرد لا مثيل له عندما يكون الإنسان قد أوقف حياته ومماته وعبادته لله لا يشاركه في ذلك أحد إنه الإخلاص والمتابعة والحب لله ولرسوله ﷺ.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أحمد، وإسناده صحيح على شرط الشيخين. وأوله: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة ...» انظر: «الموسوعة الحديثية مسند الإمام أحمد» (١٢٥/٢٠).

هكذا المسلم الفذ عندما يعيش لفكرة وهدف فإنه يحيا لها ويفكر بها ولها ويضحي من أجلها ويوالي من أحبها، ويعادي من عاداها ، إنها فكرة إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد إنه بهذه الفكرة يعيش عظيمًا ويموت عظيمًا لكن عندما يعيش لهوى أو لفكرة دنيئة أو لا لشيء فإنه يعيش صغيرًا ويموت صغيرًا .. «عندما نعيش لذواتنا فحسب، تبدو لنا الحياة قصيرة ضئيلة، تبدأ من حيث بدأنا نعي، وتنتهي بانتهاء عمرنا المحدود ...

أما عندما نعيش لغيرها، أي نعيش لفكرة، فإن الحياة تبدو طويلة عميقة، تبدأ من حيث بدأت الإنسانية، وتمتد بعد مفارقتنا لوجه هذه الأرض ...»[1].

أخي الحبيب:

إنني عندما أتحدث إليك أشعر بشعور غريب ينتابني ... إنه شعور الولاء الصادق شعور الحب العميق في ذات الله شعور الانتماء إلى قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ [الحجرات: ١٠].

وإني وأنا أودعك في هذه اللحظات لأشتاق إلى مرآك وحديث معك ... لأن ذلك يجدد عندي الإيمان ويذكرني بالله وآلائه وعظمته ... وأملي ورجائي أن يكون لقاؤنا غدًا تحت ظل عرش الرحمن، يوم لا ظل إلا ظله في جنات ونهر عند مليك مقتدر.

أخوك المحب

---

(١) «أفراح الروح»، سيد قطب رحمه الله (٨).

أَزِفَ الرَّحِيلُ

دنا الرحيل ... فقوضت الخيام ... ونقض الغزل ... و لم يعد ذاك المنزل إلا أطلالاً دارسات ونؤيا متثلمات [١] وأثافيًا [٢] قد تباعد بعضها ... كأن لم يوقد عليها نار ومرابط الدواب قد عفتها السوافي [٣] والأمطار ...

هكذا كانت كأنها لم يلتق فيها خل بخله ... و لم يصاف حبيب محبة ... و لم تودع والدة وليدها ... و لم تحتضنه بحرارة عند قدومه من الغربة

هكذا أقفرت [٤] من كل شيء فأصبحت كأنها لم يشد بها شاد و لم يغرد فيها يمام

بوجزة أطلال تعفت رسومها
وأقفرت بعد الأنيس قديمها
يا دار أمسي دارسًا رسمها
وحشًا قفارًا ما بها آهل
قد جرت الريح بها ذيلها

---

(١) النؤي: الحاجز حول الخيمة لئلا يدخلها المطر، المتثلم: المتهدم من جميع جوانبه.
(٢) أثافي: هي الأحجار التي توضع عليها القدر، ومنه قولهم: رماه الله بثالثة الأثافي. قال ثعلب: أي رماه الله بالجبل، أي بداهية مثل الجبل، والمعنى أنهم إذا لم يجدوا ثالثة من الأثافي أسندوا قدورهم إلى الجبل.
(٣) عفا: محا، وعفت الرياح الآثار إذا محتها ودرستها، السوافي: الرياح.
(٤) أقفرت: خَلَتْ.

واســـتن في أطلالهـــا الوابـــل [1]

لقد أزف الرحيل ... نعم إنه يلملم متاعه يقلب أوراقه ليرتبها حسب الأهم والأيدي تمتد إليه باستعطاف ... أن ابق ... وتريث ... فنعم الضيف أنت ونعم القرين أنت ونعم الصاحب الوفي أنت.

فيك تنزل الرحمات ... وفيك يلطف البـــاري بعبـــاده ... إن أيامك لجد غالية ... نسماتها كالسلسبيل على القلـــب عـــذبًا ... ودقائقها بالخير ملأى

ما إن تفلت يده من يد واحد إلا تلقفها آخـــر ... يســـترحمه بأدب ... أن ابق وتريث ... فنعم الضيف أنت، ونعم الصـــاحب الوفي أنت ... وهكذا من يد شخص إلى آخر ... ولكنه كـــالطود شامخًا ... لا يجيب.

ترمقه النظرات وملء جفونها العبرات ... تلحظه العيون وهي تهمي الدمع الجمان ... تنظر إليه وهويحزم حقائبـــه ... ويرتـــب دفاتره ... وربما كانت هذه آخر حقيبة يقفلها

إنه قد عزم على الرحيل وشمر للنهوض ليودع الأهل والمحـــبين إنها ساعة في ظني لحزينة ... بل مفجعة مؤلمة ... وليس أشد علـــى النفس من الفراق والوداع.

كـــأن ســـنانًا فارســـيًا أصـــابني

(١) الأبيات الثلاثة لعمر بن أبي ربيعة.

على كبدي بـــل لوعـــة الـــبين أوجـــع [(١)]

إلى الله أشـــكو مـــن فراقـــك لوعـــة

طويت لها مـــني الضـــلوع علـــى جمـــر [(٢)]

إنه لا يلتفت على استعطاف مسكين ... ولا ينظر إلى مقـــل المحب وقد شابها الدمع الهتون.

نعم لقد رحل ... وبقي المحبون والأهلون وغيرهم ... ولكـــن ماذا استفدنا من هذا الضيف الكريم؟

من شعاعه الوهاج من مائه الثجاج من نبع حبه الصافي الرقراق ... من كريم خلاله التي تشق على العاد.

نعم رحل وفي العين دمعة ... وفي القلب حزن ... وفي النفس جوى وحرقة...

نعم أزف الرحيل ... بل رحل الضيف العزيز وتركنا بلا ليلة مباركة تسمى ليلة القدر ... الليلة العظيمة التي من وفق لها غفر له ما تقدم من ذنبه ... حسبه شرفًا ويكفيه فخرًا من ذاق طعمها ... تركنا ورحل بأيامه حلوة المذاق ... من صوم ولـــذة عبـــادة ... وتعويد للنفس على الصبر والمشقة ... وعلى البذل والعطـــاء ... ذهب بلياليه العذاب ... مناجاة وذكر للرحمن ... وتلاوة للكتاب تشرح الصدر للإيمان ... فمحبوه كثير ... وأخلاؤه جمع غفير ...

---

(١) ذو الرُمَّة.

(٢) أبو فراس الحمداني.

إنهم ﴿**كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ**﴾ [الذاريات: ١٧].

لقد أقض مضجعهم نار تلظى فلم يعد لجنوبهم خلود للنوم أو تلذذ بالفراش الناعم اشتاقت نفوسهم إلى خير عظيم وعــدهم الله إياه ... إنها جنة عرضها السموات والأرض ... إن من صفاتهم في لياليه الغالية ﴿**وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ [الذاريات: ١٨]. لقــد لازم ذكر الله لسانهم ... والقيام والتهجد أجسامهم حتى تكللــت الأقدام وتوجعت المفاصل والعظام.

وذلك في ذات الإلــه وإن يشــأ

يبارك على أوصال شلو ممزع (١)

حتى إذا حان السحر وأوشك الصبح أن يتنفس تغانموا ما تبقى بالاستغفار ليختموا عملهم بتوبة ... سبحان الله هؤلاء الطــائعون يختمون عباداتهم بالاستغفار فكيف بمن يختم ليلته ويومــه وشــهره وسمته بلا استغفار ولا توبة..؟!!

إنها ﴿**تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ**﴾ [السجدة: ١٦]، كأنهم على حسك السعدان (٢) يتقلبون يمينًا وشمالاً ... فلا يروق لهم نوم ولا هجعة ... فينهضون يصفون بين يدي الله ... ﴿**يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾ [السجدة: ١٦] خوفًا مــن ناره وطمعًا في رحمته وجنته ... فماذا كان جزاؤهم؟ اســتمع إلى

(١) خبيب بن عدي (رضي الله عنه) عندما صلبته قريش تريد قتله.

(٢) حسك السعدان: نبات له ثمرة خشنة تعلق بأصواف الغنم، وهو الشوك.

قوله تعالى بعدها: ﴿**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [السجدة: ١٧]. إني ألحظهم يعزي بعضهم بعضًا ... ويُواسي الأخ أخاه على فراقه ...

إنه قد رحل وتركهم فلا تجد فيهم إلا مكبًا على وجهه يبكي ... وآخر يكتم الحسرات المؤلمات.

وآخر لا يستطيع الكتمان فتند العين بالدمع جهرًا ... لماذا يا ترى؟ ألأنه رحل؟ ... أم ماذا؟ ... إنهم يؤمنون بسنة الله وقضائه في هذه الحياة.

﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، ولكن حرقتهم ولوعتهم وأساهم والجوى الذي خيم عليهم مع فراقه هو هل كانوا فيه من الفائزين..؟ هل كانوا فيه من المقبولين..؟ هل كانوا فيه ممن صامه وقامه ووفق لليلة القدر إيمانًا واحتسابًا فغفر له ما تقدم من ذنبه...؟؟ أم كانوا غير ذلك...؟؟

هل هم ممن سيدعون غدًا يوم الحساب ﴿**سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ**﴾ [الزمر: ٧٣]...؟؟[1].

---

(١) كانت هذه الخاطرة لتسع خلون وعشرين من الشهر المبارك لعام ألف وأربعمائة واثنين وعشرين من الهجرة الشريفة، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

الفهرس